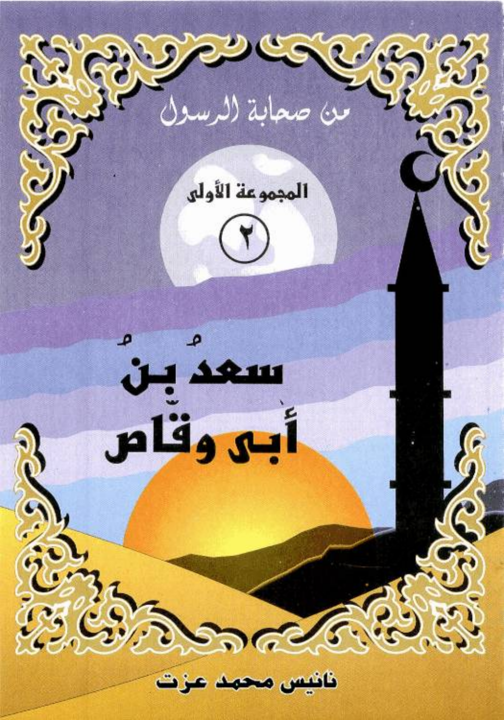


من صحابة الرسول
المجموعة الأولى
٢
سعدُ بنُ
أبى وقّاص
نانيس محمد عزت

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى ٢

سعدُ بنُ أبى وقّاص

بقلم

نانيس محمد عزت

الناشر

مكتبة مصر

سعيد جودة السحار وشركاه

٢ شارع كامل صدقى - الفجالة

ت: ٥٩٠٨٩٢٠

سعد بن أبي وقاص

راحتِ الأُمُّ توقِظُ حُسامًا من النّوم : اسْتَيقِظْ يا حُسامُ حتّى نذهبَ لنَزورَ خالَتكَ المَريضَة .

ردَّ عليها حُسامٌ متكاسِلا : دعيني أَنَمْ يا أُمّي ، فقدَمي تُؤلِمُني ولا أَستَطيعُ أنْ أَمشِيَ عَليها .

قالتْ له أُمُّه : لا تَكنْ كَسولاً يا حُسام . ألا تَعلمُ أنَّ زِيارةَ المَريضِ واجبَة ، وأنَّها صَدقَةٌ تُؤجَرُ عَلَيْها ؟

قال حُسام : أعلَمُ يا أُمّي ، ولكنَّ قدَمي تُؤلِمُني حَقيقة ، فقدِ التَوتْ أمسِ في أثناءِ لَعبي الكُرَة . آهِ يا قدَمي ! آه يا قَدمي !

قالتْ أمُّه : لا تُبالغ في الشّكوى يا حُسام ، فقدمُك سَليمة ، أتَعلمُ أنّك لا تُريد أن تَزورَ خالَتَكَ المريضَة ، وتَتعلّلُ بألَمٍ في قدمِك ؟ فما بالُك بمن قادَ مَعرَكَةً فاصِلةً في تاريخِ الأُمّةِ الإسْلامِيَّة ، بَينما جِسمُهُ يَنزِفُ دَمًا

وصَدِيدًا !

قال حُسام : أحقًّا ما تَقولينَ يا أُمّى ؟ فمنْ يَكونُ هَذا القائد ؟

قالَتْ أُمُّه : إنّه البَطلُ المُثابرُ سَعْدُ بنُ أبى وَقّاص .

تَرجّاها حُسام : هَلاَّ حَكَيْتِ لى قِصَّتَهُ يا أُمّى ؟ احْكِها لى فأنا أُحبُّ أن أسْمَعَها .

قالت أُمّه : كان سعدُ بن أبى وقّاص من أخوالِ النّبىِّ ـ صلّى اللّه عليهِ وسلّم ـ فهو من بنى زُهرَةَ أهلِ آمنةَ بنتِ وهبٍ أمِّ النّبىِّ ، وكان ـ صلّى اللّه عليهِ وسلّم ـ يَفخرُ بسعدٍ ويعتزُّ بقَرابَتِه . فذاتَ يومٍ وهو جالسٌ إذ مرَّ سعدٌ به فقالَ ـ صلّى اللّه عليهِ وسلّم ـ لأصحابه : هذا خالى .. فليُرِنى امْرؤٌ خالَه .

قالَ حسام : ومتَى أسلمَ سَعدٌ يا أُمّى ؟

فابتَسمت أُمُّه وقالَت : أسلمَ سعدٌ فى وقتٍ مُبكّر ، فقد كانَ ثالِثَ ثَلاثةٍ أسْلَموا . ويقولُ عن نَفسِه : لقد

أتى عليَّ يومٌ وإنّى لثلثُ الإسْلام . أتعلمُ يا حُسام أنَّ إسْلامَ سَعدٍ سَبقتْه رُؤيا رآها فى المَنام كانَ لها أكبرُ الأثرِ فى إسْلامه ؟

قال حُسام : وكيفَ ذلك يا أُمّى ؟

قالت : قبلَ إسْلامِ سَعدٍ بثلاثَةِ أيّام ، رأَى فى نَومِه أنّه يَمضى فى طَريقٍ شديدِ الظّلام ، يَمشى فيهِ مُتخَبِّطًا لا يَستطيعُ أن يرَى فيه أىَّ شَىء . إذ أنارَ له قَمرٌ فَجأَةً فراحَ يَمشى فى نورِه ، فرأَى بعضَ أشْخاصٍ يَمشون أمامَه ، فتعرَّفَ عليْهم فإذا هم زَيدُ بنُ حارثَة ، وعَلىٌّ بنُ أبى طالِب ، وأبو بَكرٍ الصِّدّيق . فسأَلهم : منذُ متَى وأنتُم ها هنا ؟ قالوا له : هذهِ السّاعَة .

وعندَما بزغَت الشَّمسُ فى اليَومِ التّالى ، علِمَ أن مُحمَّد بنَ عبدِ اللّهِ جاءَ بدينٍ جَديد ، يَنبُذُ عِبادةَ الأصْنام ويَدعو لعِبادَةِ اللّهِ الواحِدِ الأحد ، وعَلِم أنَّ الثّلاثةَ الّذينَ رآهُم فى رُؤياه : زَيدًا وعلِيًّا وأبا بَكر ، قد

أسْلَموا ، فقابلَ الرَّسولَ ـ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ـ وأسلمَ هو الآخَر .

وقد أسلمَ سعدٌ على يَدَى أبى بَكرٍ الصِّديقِ وهو ابْنُ سَبعَ عَشْرَةَ سنة . وكان إيمانُ سعدٍ عَميقًا راسِخًا لا يتزَعْزَع ، ظهرَ ذلك واضِحًا عِندَما علِمتْ أمُّه بخَبرِ إسْلامِه ، فهى تَعرفُ كم يُحبُّها سَعد ، وكم هو رَقيقُ العاطِفَةِ بارٌ بها ، فحاولتْ أن تستَغِلَّ حُبَّه لها لتَرُدَّه عن الإسْلامِ .

فقد صامَتْ عن الطَّعامِ والشَّرابِ لا تَأكُلُ ولا تَشرَبُ ليَرجعَ سعدٌ عن إسْلامِه ، حتَّى أشرفتْ على الموت . وجاءَه بعضُ أقاربِه وطَلبوا منه أن يَرَى أُمَّه وهى تتلَوَّى مِنَ الجوع ، عَسَى أن يَرقَّ قلبُه لَها حينَ يَراها ، ولكنَّه على الرَّغمِ من حُبِّهِ الشَّديدِ لَها ، إلاَّ أنَّ حُبَّه لِلَّه ـ سُبحانَه وتعالَى ـ ولإسْلامِه كانَ أكبرَ وأشَدّ .

فقالَ لَها بقُوَّةِ إيمان : واللَّهِ يا أُمِّى ، لو أنَّ لكِ

مائة نَفس خرجتْ نَفْسًا نَفسا ، ما تَركتُ دينى هذا لِشَىء . فكُلى إن شِئتِ أو لا تأكُلى .

فتأكَّدتْ أُمُّه أنّه لا مَجالَ لِردِّهِ عن الإسْلام ، فرجَعتْ عن صَومِها وتركَتْه لِحالِه .

* * *

ولقد نَزلَ فى مَوقفِ سَعدٍ معَ أُمِّه قُرآنٌ يُؤيِّد فَعلتَه ، فقالَ تعالى : ﴿ وإنْ جاهَداك علَى أن تُشرِكَ بى ما لَيس لكَ به عِلمٌ فلا تُطِعهما وصاحِبهما فى الدُّنيا مَعروفا ﴾ .

وكانَ الرَّسولُ ــ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّم ــ يُحبُّه حُبًّا عَظيما ، فدَعا له : (اللَّهمَّ سَدِّد رمْيَته ، وأَجبْ دَعوَتَه)، فكانتْ رميَتُهُ قاضِيَة ، وظهرَ ذلك فى كثيرٍ من المَعاركِ الّتى شارَك فيها . وكانتْ دَعوتُه كذلكَ مُستجابَة . فذاتَ يَومٍ وهو بالسّوقِ رأى رَجُلاً يَسُبُّ بَعضَ الصَّحابَة ، فقالَ له : أَتسُبُّ صَحابَةَ الرَّسولِ ــ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّم ــ ؟ إنْ لم

تَنتهِ عَن ذلك دَعوْتُ عَليك . فاسْتَهزأَ بهِ الرَّجُلُ وقال : تُهدِّدُنى كأنّك نبيّ ؟

قال حُسام : وماذا فعلَ يا أُمّى ؟ هلْ دعا عليهِ حقّا ، وهل استجابَ الله لدُعائِه ؟

قالتْ أُمُّه : لا تَتعجّل يا حُسام ، فسأحْكى لك . نعمْ يا وَلدى دَعا عليه .

وقبلَ دُعائه تَوضّأَ وصلّى لِلّهِ ، ثم دَعا قائلا : اللّهُمَّ إنَّ هذا الرَّجلَ سَبَّ قَومًا سَبقتْ لك مِنهُم الحُسنَى ، فلئنْ كانَ أغضبك فاقْضِ عَليه .

وسُرعانَ ما خرجتْ ناقَةٌ شارِدةٌ من أحدِ البُيوت ، مُتّجِهةً إلى السّوقِ لا يَردُّها شَىءٌ .. حتّى دَهسَته وقَضتْ عَليه .

قالَ حسام : يا سُبحانَ الله !

قالتْ أمه : لا تَعجبْ يا حُسام ، لقد سبقَ أن قلتُ

لك إنَّ الرَّسولَ - صلّى اللّه عليهِ وسلّم - دَعا لَه باسْتِجابةِ الدُّعاء . ثمَّ إنَّه أحدُ المُبشَّرينَ بالجنَّة .

قالَ حسام : هَنيئًا له الجنَّة !

قالتْ أُمُّه : ذاتَ يَومٍ بَينَما الرَّسولُ - صلّى اللّه عليهِ وسلّم - وأصحابُه جالِسون ، إذ نزَلَ الوَحيُ وأخبرَه بشَيءٍ ما ، فقالَ - صلّى اللّه عليهِ وسلّم - لأصْحابِه :

- يَطلُعُ علَيكم الآنَ رجلٌ من أهلِ الجنَّة .

فراحَ الصَّحابةُ يَتلفَّتون ويَبحثونَ منِ المُبشَّرُ بالجَنَّة ؟ فإذا به سعدُ بنُ أبي وقّاص .

ولِحرصِ الصَّحابةِ علَى طاعةِ اللّه ورضاه ، لحِقَ بسعدٍ عبدُ اللّهِ بنُ عَمروِ بنِ العاص يسأَله عمّا يفعلُه لينالَ تلك المَنزلَة ، وما يَقومُ به من أعمالٍ تُؤهِّله لدُخول الجنَّة . فردَّ عليه سعد بقوله :

- لا شيءَ أكثر ممّا نَعمَلُ جميعا ، غيرَ أنّي لا أحمِل لأحدٍ من المُسلمينَ ضِغنًا ولا سوءا .

ولم يَتّكِلْ سعدٌ على هذه البُشرى فَيكسَلْ عن طاعةِ اللّهِ وعِبادتِه ، بل زادَته البُشرى هِمَّةً وحَماسا ، ليَكونَ أهلاً لِلجنّةِ المَوعودة .

فكان فى الغَزَواتِ فارسًا مِغوارًا تجلّت شجاعتُه فى كلِّ غزوةٍ غزاها . فيومَ بدرٍ شاركَ هو وأخوه عُمَير ، وكان عُمَيرٌ لا يزال حدَثًا صغيرًا ، فردَّه ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ لِصغرِ سِنّه . ولكنّه ظلّ يبكى حتّى رقّ لبُكائه وأجازَه ، فانطلَقَ الأخَوان يُجاهِدان فى سبيل اللّهِ بشَجاعةٍ وبَسالة ، مُضَحّينَ بكلِّ غالٍ ونفيس ، حتّى استُشهِدَ عُمَيْرٌ واحْتَسبَه سعدٌ عند اللّه .

ويومَ أُحُدٍ ، أتعلمُ ما حدثَ يومَ أحُدٍ يا حُسام ؟

قال حُسام : طَبعًا أعلَم لقد كانَ النّصرُ لِلمُسلِمين ، ولكن عصَى الرُّماةُ أمرَ الرّسولِ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ ونزَلوا عن الجَبَل ، فغافلَهم المُشرِكون ، وامتَطوا الجبلَ وأمطَروا المُسلمينَ بوابلٍ من السِّهامِ والرِّماحِ زلزَلتْ

كِيانَهم وفرقتهم .

قالت أمُّه : عَظيم ، وحين تفرَّقَ المُسلمون ، التفَّ عشَرةٌ من الصَّحابةِ حولَ رسولِ اللّهَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ بأجسادِهم ، وفتحوا صُدورَهُم لتَلقّى ضَرَباتِ العَدُوِّ دِفاعًا عنه . ووقفَ سعدٌ يُدافعُ عنِ الرَّسولِ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ بقَوسِه ، فكان لا يَرمى رميَّةً إلاّ وأصابتْ من مشركٍ مَقتَلا .

وحينَ رآهُ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ يرمى هذا الرَّمى ، جعلَ يُشجِّعُه قائِلا : ارمِ سعدُ ، ارمِ فِداكَ أبى وأُمّى . فظلَّ سعدٌ طِوالَ حياتِه يفتَخرُ بقولِ الرَّسولِ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ .

صاحبَ سعدٌ رسولَ اللّهِ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ قرابةَ عِشرينَ عاما ، وكان له موقِفٌ يومَ حِجَّةِ الوَداع ، فبعدَ أن أتمّ مناسِكَ الحَجِّ مرِضَ مَرضًا شَديدا .

فزارَه ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ فى دارِه ، فسألَه

سعدٌ : يـا رسـولَ اللّـهِ إنّـى ذو مـالٍ ولا يَرِثُنـى إلاَّ ابنَـةً واحدة ، أفأتَصدَّقُ بثُلُثَى مالى ؟

قالَ النّبىّ : لا . قالَ سعدٌ فبنصْفِه ؟ قالَ النَّبـىُّ : لا . قال فبثُلُثِه ؟ قال النبىُّ : نعم ، والثُّلُـثُ كَثير . إنَّـكَ إن تَرَرْ وَرَثَتك أغنِياء ، خيرٌ مـن أن تَررَهـم عالـةً يتكفّفـونَ النّاس .

قالَ حُسام : ألهذِه الدَّرجةِ كان مُنفِقًا فى سَبيلِ اللّه ؟

قالت أمُّه : كانَ سـعدٌ غَنيًّا بـارك اللّـه لـه فـى رزقِـه ووسَّعَ تِجارَتَه . فكان مالُه حلالاً لا غُبارَ عليـه ، وكـان لا يَنسَى حقَّ اللّهِ فى مالِه .

قالَ حُسام : وماذا عنه أيضًا يا أُمّى ؟ إنَّ سيرَتَه عَطِرةٌ مَليئَةٌ بالمَواقفِ والأحداثِ العظيمة .

قالت أُمّه : وهناك المزيدُ يا وَلـدى ، فلِسعدٍ الفَضـلُ فى فتحِ بلادِ فارسٍ ودُخولِ الإسـلامِ إليهـا . ففـى عَهـدِ الخَليفَةِ عمرَ بنِ الخَطّـابِ واقِعَة ، تـدُلُّ علـى قُـوَّةِ إيمـانِ

وصَبرٍ ومُثابرةٍ لا حُدودَ لها . فقد انتشرَ التّمرُّدُ والعِصيانُ فى بلادِ العِراق ، وزادتْ هَجَماتُ الفُرسِ على المسلمين . وكانت معركةُ « الجسر » التى راح ضحيتَها أربعةُ آلافِ شهيدٍ من المسلمين فى يومٍ واحد ، فقرَّرَ الخليفةُ أن يَذهبَ إليهم بنفسِهِ على رأسِ جَيش ، ليَحفظَ للإسْلامِ هَيبَته .

ولكنَّ بعضَ الصَّحابَةِ رَأَوْا منَ الأَفضَلِ أن يَبقى الخَليفةُ عُمرُ فى المَدينة ، وأنْ يُرسِلَ من يَنوبُ عَنه فى تِلكَ المُهِمَّة . فكانَ سَعدٌ هو منْ وقعَ عَليهِ الاخْتِيار .

* * *

خرجَ سعدٌ فى جَيشٍ عِدَّتُهُ ثَلاثونَ ألفَ مُقاتِل ، أَسلحَتُهم الرّماحُ والسُّيوف ، ولكنْ فى قُلوبِهم إيمانٌ يُذيبُ الصُّخور . خَرجوا لِيُلاقوا مائةَ ألفِ مقاتلٍ من الفُرسِ فى كامل عُدَّتِهم وعَتادِهم ، يَقودُهم رُستُمُ أَعظَمُ قُوّادِهم وأَشهرُهم .

وأشارَ الخليفةُ ـ عُمرُ بنُ الخَطّابِ ـ على سَعدٍ أن يَبعثَ إليهم أوّلاً من يَدعوهم إلى الإسْلام ، ولكنَّ الغُرورَ والكُفرَ أعمَيا أبْصارَ الفرس ، فكانَ ردُّهم : هيَ الحربُ تَفصِل بَيننا وبَينكم .

هُنالكِ يَظهرُ مَوقِفُ سَعدٍ العَظيم ، وتَظهرُ قُوَّةُ إيمانِه وثِقَتِه بنَصرِ اللّه له . فكيفَ له أن يَخوضَ حَربًا ضارِيَةً مِثل هَذه وقد تَمكَّن مِنهُ المَرض ؟ كيفَ وقَد مَلأتْ الدَّماميلُ جسْمَه تَنزِفُ دَمًا وقَيْحا ؟

ولكِنَّه بإيمانٍ راسِخٍ وبقُوَّةٍ عَزيمَةٍ جَبّارة ، تَحاملَ على نَفسِه وصلَّى صَلاةَ الظُّهرِ بجُنودِه ، ثم كبَّرَ أربعَ تَكبيراتٍ كانت إيذانًا ببَدءِ مَعركَةِ القادِسيَّة ، أو بَدءِ الصّاعِقَةِ الّتى نَزلتْ بالفُرسِ وقضتْ على عِبادَةِ النّار .

وطاردَ جيشُ المُسلِمينَ جُنودَ الفُرسِ الفارّين حتّى نَهاوَنْدَ والمَدائن ـ وفى المَدائنِ أظهرَ جيشُ المُسلمينَ شَجاعةً وإقدامًا لا مثيلَ لهما . إذْ كان نهرُ دِجلَةَ بينَ

المُسلمينَ والفُرس وكان مَوسمُ فَيضانِ النَّهر . فأمرَ سعدٌ جُنودَه بعُبورِ النَّهر . وكما دَخلت الجُنودُ النَّهرَ خَرجت مِنه سالمةً لم تفقِد ولا شَكيمةَ فَرَس ــ الحديدةَ المعترضة فى فم الفَرس ــ . فقد كانوا يَعبرونَ النَّهرَ آمنِينَ مُطمَئنِّين ، كما لو كانوا يَسيرونَ على الأرض .

* * *

وتولَّى سعدٌ إمارَةَ بلادِ العِراق ، وأعادَ بناءَها وتَعميرَها ، وعمِل على إرْساءِ قَواعدِ الإسْلامِ فيها .

ولكنْ حدثَ أن تآمرَ أهلُ الكوفَةِ على سَعد ، فبَعثوا إلى عمرَ بنِ الخَطّابِ يَقولون إنَّ سعدًا لا يُحسنُ الصَّلاة . فيترُكُ سعدٌ العِراقَ ويَعودُ إلى المَدينَة ، ويأبَى أن يعودَ إلى العِراق مرَّةً ثانِيَة .

ويقضى ما بَقى من عُمرِهِ فى المَدينة مُعتزِلاً النّاسَ والفِتنَ والنِّزاعاتِ على الخلافة ، حتى لَقِيَ ربَّهُ وقد تَخطَّى الثَّمانينَ من عُمرِه ، آمِنًا مُطمئِنًا واثِقًا بتَبشيرِ

الرَّسولِ لهُ أنَّهُ من أهلِ الجنّة .

وفى حالَةِ النَّزعِ يَطلبُ سعدٌ من بَنيـهِ أن يُكفّنـوهُ فـى ثَوبٍ قَديمٍ بال ، ويقولُ لَهـم : لقـد لَقيتُ الكُفّارَ يـومَ بَدرٍ بهَذا الثّوب ، وأُحبُّ أن يَكونَ كَفنًا لى .

وهكذا مـاتَ سـعدٌ بطـلُ القادِسيَّة ، فـاتِحُ المدائـن ، مُطفِئُ النّارِ الّتى كانَ يَعْبُدُها أهلُ فارِس .

* * *

وما أَن انْتهتْ أمُّ حُسامٍ من قِصَّةِ سَعدِ بن أبـى وَقّـاص ، حتَّى قَفَزَ حُسامٌ من سَريرِه بخفَّةٍ ونَشـاط ، وقـال : هَيـا يا أُمّى حتّى لا نَتأخَّر عن زِيارَة خالَتى المَريضَة .

قالتْ أُمُّه : وقدمُكَ ألا تُؤلِمُك ؟

قالَ حُسام : إنَّ زِيارةَ المَريضِ واجبةٌ يا أُمّى ، ويَجـبُ ألاّ تَمنعَنا أشْياءُ بَسيطَةٌ مِثْلُ هذه عن أَداءِ الواجِب .